

الدرس الثاني: الدلالة عند علماء العرب (1)

لم يكن العرب أقل شأنًا من الأمم الأخرى من دراسة المعنى إذ نجد في تراثنا مجموعة من المصطلحات الدلالية؛ منها: اللفظ والمعنى، المشار إليه، والتصوير الذهني، والبدال، والمدلول، والفكرة... إلا أن الإحاطة بجهود علماء العربية - كافة - في دراسة الدلالة يحتاج إلى وقت طويل، وبحث عميق في كتب التراث. وهذا الذي بين أيدينا لا يعدو أن يكون إشارات.

أ- عند اللغويين: لقد كان اهتمام لغويي العربية بالقضايا الدلالية منذ بداية التصنيف اللغوي؛ فعلماء المعاجم؛ أو واضعوها أقاموا معاجمهم على أساس دلالي؛ إذ جمعوا ألفاظ العربية، ودوّنوا دلالاتها وكيف أن تلك الدلالات تختلف باختلاف السياقات التي ترد فيها. وهذا الخليل يقيم معجمه (العين) على مبدأ المستعمل والمهمّل. والفرق بينهما دلالي؛ إذ المستعمل ما دلّ على معنى خلافا للمهمّل الذي لا دلالة له.

وابن فارس تحدّث عما يعرف بالعلاقة الدلالية بين المشتقات المختلفة للأصل الواحد. وقد أقام معجمه المقاييس على هذا الأساس. مثال ذلك ما أوردناه في تعريف الدلالة.

ثمة نوع آخر من المعاجم المصنفة دلاليًا، وهي معاجم المعاني، أو ما يعرف بالمعاجم المَبُوبَة. وقد كان العرب من السابقين إلى هذا النوع من التصنيف، وفاقوا فيه غيرهم. استهلوها بالرسائل اللغوية؛ وهي مصنّفات صغيرة كل واحدة منها في مجال معين. كالسلاح والإبل، والشاء، والنخل، والنبات، وخلق الإنسان... وغيرها من الرسائل التي يزخر بها التراث العربي. وصولاً إلى المعاجم الضخمة كمخصص ابن سيده. هذا الأخير الذي يؤكد على أن اللغة ظاهرة اجتماعية وألفاظها اختيارية بقوله: إنها عملية تحكيمية تلك التي يتم بها اختيار الدال. والاختيار لا يقوم به فرد إنما هو من وضع الجماعة.

كما نجد ابن جني يتحدّث عن الرابط الدلالي ذاهباً فيه مذهباً تميز به عن غيره. وذلك في حديثه عن الاشتقاق الأكبر. قال: «أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تجتمع التقاليب الستة وما يتصرّف من كل واحد منها عليه»

مثال ذلك مما ذكر: مادة (كلم) جميع مشتقات المادة ومشتقات مقلوباتها تشترك في معنى القوة والشدّة - حسب ابن جني - من ذلك (الكلام) لأنه يقرع السمع، ويؤثر فيه. و(الكلم) (الجرخ). و(الكلام) ما غلظ من الأرض. و(الكامل) - وهو مشتق من مقلوب (كلم) - ضدّ الناقص. والقوة في (لكم) - وهو المقلوب الآخر - ظاهرة. كما في (مكل) ومنه بئر مكول؛ إذا قلّ ماؤها...

كما نجد في كتابه - الخصائص - باباً بعنوان (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) يؤكد فيه على أن التقارب الصوتي بين الكلمات يؤدي إلى التقارب الدلالي مثاله الهز والأز. كما له باب آخر

بعنوان (مناسبة الألفاظ للمعاني). بين فيه أن العرب يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها. مثال ذلك القضم لأكل اليابس، والخضم لأكل الرطب.

هذا وأشار علماء اللغة العرب إلى قضايا دلالية مختلفة؛ منها الاشتراك اللفظي، والأضداد، والترادف، وسيتم التعرّف عليها لاحقاً.

ب - عند النحاة: على غرار اللغويين لم تخل كتب النحاة من الحديث عن الدلالة منذ كتاب سيبويه؛ سواء عند حديثه عن العلامة الإعرابية وما تؤديه من دور في تحديد الدلالة التركيبية؛ من فاعلية، ومفعولية، وظرفية... وغيرها. أم عند حديثهم عن حروف المعاني ودلالاتها. أم عند حديثهم عن القرائن النحوية لفظية كانت أو معنوية. كما أن تقسيمهم الكلام إلى اسم وفعل وحرف تقسيم دلالي؛ ذلك أن الاسم والفعل دالان على معنى في نفسيهما. خلافا للحرف؛ الذي يكتسب معناه مما يرتبط به.

ناهيك عن الذكر في مقابل الحذف، والتقديم في مقابل التأخير. وإن كانت هذه الأخيرة من اهتمامات علم البلاغة. وما ذلك إلا دليل على وثاقة الصلة بين العلمين.

ج - عند علماء الأصول: لعلّ علماء الأصول - أصول الفقه الإسلامي - من أوائل من اهتم بالدلالة عند العرب، منذ الإمام الشافعي (204هـ) أول من وضع أبواب الأصول؛ وذلك لأن استنباط الأحكام الشرعية من النصوص القرآنية منوط بالفهم الصحيح للدلالة. هذه الأخيرة التي قد تكون مباشرة واضحة، أو غير مباشرة؛ لإدراكها يجب الوقوف على العناصر المحددة لها؛ من سياق لغوي يفهم من اللغة، وغير لغوي متمثل في أسباب النزول.

لأجل ذلك قسم علماء الأصول الدلالة إلى: دلالة أصلية وضعية ويسمونها الإفرادية، وهي المتفق عليها، وشرعية: وهي اللفظ المستعمل في المعنى الموضوع له شرعاً ككلمة (الصلاة) دلالتها الأصلية الوضعية هي الدعاء. والشرعية هي ركن من أركان الإسلام، وهي عبادة تؤدي بكيفيات مخصوصة، وأقوال مخصوصة، تقرباً من الله تعالى.

كما قسم علماء الأصول دلالة اللفظ على المعنى إلى خاص وعام، ومشارك ومؤول.

وقسموها بحسب استعمال اللفظ في المعنى إلى دلالة حقيقية مجازية، وكنائية وتصريح.

وقسموها حسب دلالة اللفظ على معناه إلى ظاهرة وخفية. وقسموا الظهور والخفاء إلى مراتب.

مراتب الظهور: ظاهر، ونص، ومفسر، ومحكم.

مراتب الخفاء: خفي، ومُشكّل، ومجمل، ومتشابه.

ولعل (كتاب المستصفي في علم الأصول) للغزالي خير مثال على جهود علماء الأصول في دراسة الدلالة. ومما تناوله زيادة عما سبق ذكره تقسيمه للدلالة إلى دلالة مطابقة، ودلالة تضمين، ودلالة استلزام. متأثرا في ذلك بالفلاسفة. مما سيتم توضيحه في موضعه.

كما قسموا الدلالة باعتبار كقيمتها إلى لفظ دال بالعبرة، وآخر بالإشارة، وثالث بالدلالة، ورابع بالاختضاء..... إلى غير ذلك من القضايا الدلالية.

مصادر الدرس ومراجعته:

العين للخليل بن أحمد الفراهيدي.

مقاييس اللغة لابن فارس.

الخصائص لابن جني.

الرسالة للشافعي.

الدلالة اللفظية لمحمود عكاشة.

المستصفي للغزالي.